تحية إلى حسين البرغوثي

طارق خميس*

خمسة أشخاص يبحثون عن سادسهم

أخذَت السيارة منعطفاً في اتجاه اليسار، قبل جامعة بير زيت، ودخلَت إلى قرية كوبر؛ كنت أنا والروائي أكرم مسلم، في طريقنا إلى بيت حسين البرغوثي؛ على مدخل القرية سألنا عن بيت حسين، أشار علينا شاب أن نستمر في القيادة حتى دوّار القرية، وهناك توقفنا مجدداً وعاودنا السؤال، فاقتُرح علينا أن نعود بالسيارة في اتجاه "معصرة الزيتون" التي تجاوزناها منذ قليل. قلت لأكرم يبدو أننا لن نجد البيت هكذا. أمام المعصرة توقفنا وعاودنا السؤال: أين بيت حسين البرغوثي؟ أجاب الرجل الواقف هناك: حسين.... مين حسين البرغوثي؟ حسناً جئنا ونحن نفكر في هذا السؤال.

أشخاص سقطوا من النص

خرجت بترا لتستقبلنا ولحقها آثر (لا بد من أنها المرة الأولى التي أقابل فيها شخصين سقطا من رواية)، بترا التي كانت تُعدّ مع حسين صحن السلطة في "سأكون بين زهر اللوز"، و"آثر" طفله الذي كان يقول له: حسين انظر، إنه بيت نمل، اُرقص. ويرقص حسين.

أقول لآثر هذا هو البيت الذي وصفته بـ "البيت الذي قرب الرمل"، فيضحك ويهزّ رأسه. كان يقف أمامي شاباً قد أنهى دراسة الثانوية العامة منذ عام، بلحية طليقة وعينين هادئتين. يخبرنا أنه منذ عام مضى قرأ أعمال حسين، "اللي بقدر أقولك إياه إنّو حسّيت هادْ الشخص ممكن يكون صاحبي." هكذا يعلّق آثر، بينما كتب حسين: "كان لديّ شعور بأننا أنا وآثر نعرف بعضنا في حياة سابقة، وتخيلت أن روح آثر وروحي كانا يعرفان بعضهما منذ الأزمنة الكنعانية."

أمّا البيت فكان بيتاً بسيطاً، تشغل الحديقة فيه المساحة الأكبر من الأرض، "أراده حسين بيتاً يرحب بالناس في طريقة معماره"، تقول بترا، وتدخل لتُعدّ القهوة.

* صحافي فلسطيني.

أتوجه إلى آثر وأسأله: ألا يزعجك أن يظن الناس أن اسمك هو "آرثر" وليس "آثر"؟ يجيب آثر: "بلى، يزعجني. وكان يزعج والدي أيضاً" (يقصد حسين، وهذا تعبير احتجت وقتاً كي أعتاد أنه يعود إلى حسين). أطلق حسين على مولوده الأول والأخير اسم "آثر" حين سمع هاتفاً في المنام، يأتيه من قلب "الدير الجواني" يقول له: آثر، آثر. هبطت هذه الرؤيا على حسين وهو يكابد التفكير "عمّا سيحدث للمُسمّى عندما يقسو عليه الاسمُ." استيقظ من النوم وهو يقول لبترا: سنسميه "آثر"، وسمّوه "آثر". "بترا" بدورها أعاد حسين تسميتها، أخبرته أن اسمها "إيمان" يعود إلى شقيقتها التي توفيت قبلها، فسماها "بترا".

انضم إلينا فادي (شقيق حسين) الذي سقط من "ناطحة سحاب" في رواية "الضفة الثالثة" (وطبعاً هي المرة الأولى التي أقابل فيها شخصاً سقط من "ناطحة سحاب"). وفادي يشبه حسين، وخصوصاً في منطقة الخدود والجبهة، "البراغثة متشابهون إلى حد كبير عموماً"، يقول لي أكرم مسلّم.

سمعت باسم حسين البرغوثي لأول مرة، عندما كنت أدرس في الأردن. وخلال زيارتي لبعض الأهل في "منطقة الرصيفة" (وهي منطقة مكتظة بالغبار)، سألني قريبي: كيف وجدت المدينة؟ قلت: إنها "مدينة من غبار." ضحك وقال لي: يبدو أنك تقرأ لحسين البرغوثي. حسين! مين حسين البرغوثي؟ هكذا، قادني توارُدٌ "غباري" إلى "سأكون بين زهر اللوز" ("مدينة من غبار خميسيني"، هكذا كان الوصف). ما الذي كان يفعله حسين في الرصيفة؟ ذهب إلى هناك كي يكون قريباً من مشفى للسرطان في عمّان، حيث في ممر المشفى سيقفز فرحاً عند تلقيه خبر إصابته بالسرطان. مَن يقفز فرحاً لقدوم السرطان؟ كان يظن ـ كما أخبره الأطباء في رام الله ـ أن المرض هو الإيدز. يستجمع فرحته بعدها ويقول: "على الأقل اللعبة الآن بيني وبين الله، وآثر وبترا برّا الموضوع." هكذا تقول بترا العبارة باللغة العامية كما حكاها حسين قبل أن يكتبها، فتشعر بغبار المعركة عليها. يكتب حسين: "وخطر ببالي أن بترا زوجتي ستنهار إن انهرت أنا...'قاوم لا لأجلك، قاوم'، وشعرت بأن الجبل يهتف بي: قل لها مهما حدث إن زرتني سأكون بين اللوز."

تقول بترا القهوة أصبحت جاهزة، وننطلق خمستنا لنشربها في "الدير الجواني" بين أشجار اللوز.

"الدير الجواني": عن الجغرافيا التي لا تعرفها الخريطة

لم يكن الدير الجواني كما توقعت، أعني أنه لم يحمل أي سحر خاص به، جبل من السرو والصنوبر واللوز والزيتون، يزحف نحوه ببطء الأسمنت وإنارة الشوارع التي تضيء الخرائب شيئاً فشيئاً فلا تعود مخيفة، ولا قادرة على خلق الحكايا والأساطير. ما الذي تفعله "الإنارة الفائقة" لثقافة كاملة نشأت وهي ترقص حول الخافت والغامض والسحري؟ هذا السؤال هو الذي شغل الروائي الياباني تنزاكي "في مديح الظلال"، كما أنه اقتراح حسين في فهمه لنفسه: "لا يمكن فهم غربة قروي عن العالم أو نفسه إلاّ بفهم انتقال الثقافة الفلسطينية نقلة ضوئية."

هل تبدو هذه نوستالجيا قروية في مواجهة التحديث؟

حين عاد حسين إلى الدير الجواني بعد ثلاثين عاماً كان قادراً على أن يكتب "هذا الجمال الذي تمّت خيانته"، لأن الجمالي هنا يحمل ذاكرته معه. فالدير الجواني ليس هو مجموع صخوره وأشجاره، بل هو الدير الجواني بما فيه من غُرير وأفاعٍ وذكريات. هناك تشعر بروح "قدورة" (قاطع الطريق الذي ربّى أم حسين)، تطوف في المكان. إنه "الدير الجواني"، له اسم وذاكرة شخصية، وبيت مهجور، وربما "غار حِراء"، وإلاّ كيف سنفسر الأصوات التي كان يتبعها حسين ولا يجدها؟

أسأل فادي :هل هذه مستعمرة "حلميش" التي وصفها حسين؟

لا، هذه مستعمرة أُخرى، حلميش غرباً.

وتلك التي أمامنا مباشرة؟

هذه ليست مستعمرة، إنها مدينة روابي.

في المكان الذي وقفنا فيه وقف حسين وفكّر: "ماذا يرى مستعمر جاء من روسيا أو أستونيا، ربما قبل سنة فقط، حين يفتح الآن شباكه ويحدق في هذه الجبال نفسها التي أنا فيها؟ ماذا يرى أو يدرك من هذه الجبال التي تسبح في تاريخها وتبزغ منه؟"

أفكر في أن المستعمر الروسي والأستوني الذي يُطل الآن من شباك نافذته قد مدّه الوقت بفسحة كافية لخلق ذاكرة مع المكان، لكنه لم يفلت من لعنة ضوء النيون، فهو لا يستطيع مقاربة الأشياء إلاّ وهي مضاءة، لأنه لا يعرف تاريخها الضارب في القدم، وما إن يضيء الأشياء حتى تكفّ عن كونها هي. لديه ذاكرة عنها صحيح، لكنها ذاكرة حذرة مضاءة بأسلاك شائكة تحرسها، أشبه ما تكون بـ "رؤيا مسلحة"، هكذا كتب حسين: "احتلال بصري ومعمار ضوئي لدولة تهذي حتى في منامها برؤى مسلحة ومضاءة بالنيون، وبدت المستعمرة كلها كتاباً في النفس، أيضاً في العلاقة بين 'القوة' و'الضوء'."

تمثال دائم الرقص

يحكي فادي أنه ذهب مرة لزيارة حسين في مكتبه حيث كان يدرّس في جامعة بير زيت، ووجده غاضباً: انظر يا رجل هذا الكتاب، اِقرأ أول صفحة، يقرأ فادي. يسأله حسين: هل أعجبتك؟!! يجيب بالنفي. هل تعلم لماذا؟ انظر هذه المفردة مثلاً، اقرأها بصوت مرتفع، كيف تبدو لك؟ أليست أنيقة جداً. وقذف حسين بالرواية بعيداً.

أتذكّر كيف شرع حسين يكتب قاموساً بمصطلحات بري (الصوفي المجنون في "الضوء الأزرق")، لأنها بدت له مفردات حرّة سقطت لتوها من الخيال والتجربة الشخصية.

يكمل فادي لنا: "لقد كان حسين مهووساً بالحرية، أليس 'حجر الورد' تفكيكاً للجامد؟!" تعلّق بترا بأنه كتب "الضوء الأزرق" ليزيل ما سمّاه "سوء فهم" مع قارئ "حجر الورد". يكمل فادي: "حتى إن حسين كان مشغولاً بكتابة مسرحية تحكي عن تماثيل يمكنها الرقص."

لكن، ألا يبدو "الزواج" كتمثال لا يرقص أمام الحب الراقص؟ أو على الأقل هذا ما اعتدنا

على التفكير فيه أمام المؤسسات كلها، والزواج مؤسسة في نهاية الأمر.

تحكي بترا أن ما يميز ممارسة حسين للحرية، هو أنها لا تقع على النقيض من النظام، وإنما تبتكر نظامها الخاص وتمارس نفسها من خلاله. وتتذكر: "لقد جذبتني شخصية حسين، كيف كان بيته ـ على الدوام ـ مفتوحاً للزوار، يدخلون ويخرجون، وهو يقرأ أو يكتب، جالساً على مكتب خشبي صغير وإضاءة خافتة. كان يفيض بـ 'الكرم الروحي'، هذه الجملة تصفه بدقّة، كرم روحي يمنحه لكل مَن التقاه. يجالس 'العجائز' في القرية ومَن يسمّون 'المجانين' والصغار، ويلتقي طلابه أسبوعياً فيعطي المحاضرات في تاريخ الأدب والفلسفة والشعر، وأينما يقف في الجامعة تكن المحاضرة."

وتكمل بترا: "كثيراً ما كان حسين يُحضر لوحات فنية ويريها لآثر وهو ما زال في عامه الأول، فقد كان يريد لبصره أن يتدرب على رؤية الجمال. مرة انزعج من ضوضاء قادمة من عند الجيران، وقال لي إن 'حاسة السمع' لديهم مقموعة. وحين عاد مرة من تصوير فيلم وثائقي عن بدو 'الجهالين' أخبرني أن بصرهم تعرّض لخلل جمالي."

أستمع إلى بترا وأنا أفكر في حواس تحوّلت نفسها إلى مواقع لإنتاج المعنى. ما نعرفه عن الحواس هو أنها وسيط يستقبل العالم حسياً ويرسل معلوماته إلى الدماغ كي يحللها. تقنياً هكذا يبدو الأمر، لكن حسين يرى في الحواس مواقع لولادة المعنى إزاء العالم، والحواس المقموعة محرومة سلفاً من المشاركة في تجربة العالم وعيشه.

من هذه الرؤية الجمالية كان يُطل حسين على الحياة، ثنائية "جمالي" و"سياسي" لا معنى لها، لأنه يقف على الجمالي فيرى السياسي منه، ويذهب إلى السياسي وقد استحال إلى جمالي. الموقف من المستعمر الذي أخذ يضيء التلال برؤياه المسلحة، موقف جمالي بامتياز، حساسية مفرطة في رؤية العالم الذي تنتمي إليه. "إن لغتنا تم احتلالها"، يقول حسين لفادي، ويشرح أنها لغة تنتج فكراً يكره الحياة، بمفهوم نيتشه عن "إرادة الحياة"، وظل يشرح حتى دخلنا إلى القرية، يتذكر فادي، وهناك وجد عبارة مخطوطة على أحد الجدران: "يا ظلام السجن/خيّم إننا نهوى الظلام"، فيلتفت حسين إليّ ويقول: انظر يا فادي هذا ما قصدته، مَن هذا الذي يهوى الظلام!!

لم يكن السرطان سوى خلية من "لحم" أخذت تتغذى على خلية من "حلم". اختلال مكاني للخلايا، يمسح بالتدريج الفارق بين "الجسد" و"التراب"، وخلاله كان حسين ينتبه إلى تفصيلات العالم الصغيرة، ويودعها في النصوص.

لماذا تظنين أن حسين كتب عنك وعن آثر؟ أسأل بترا، فتجيب وهي تقتبس ما قاله حسين لها وهو يصارع السرطان في مستشفى رام الله:

"فش إشي بقدر أعملكم إياه غير إني أكتب عنكم." ■